عندما بدأ قدامى اللغويين العرب، فى تدوين اللغة، مع غموض معاييرهم، وجدناهم يقسمون تلك اللغة إلى أقسام: القرآن الكريم، والحديث الشريف، وللشعر، ونثر العرب.

أما القرآن الكريم فقالوا: إن كل رواياته فصيحة، حتى الشاذ منها، ولو أنه لا يقاس عليها، فهذا هو ابن جنى يقول: "أرضنا أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذًا، وأنه ضارب فى صحة الرواية بجرانه، أخذ من سمت العربية مهلة ميدانه[1]". كما يقول البغدادى: "كلامه - عز اسمه - أفصح كلام وأبلغه، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه[2]". ويقول الفراء: "والكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر[3]".

وأما الحديث؛ فيرفضون الأخذ به فى الاستشهاد على مسائل النحو، محتجين بأنه قد سمحت الرواية فيه، بمعناه لا بلفظه، كما أن بعض رواته كانوا من المولدين،

وهذه حجة واهية بالطبع، فإن رواة الأحاديث كانوا يعيشون، فى حيز عصور الاحتجاج. وحتى لو سلمنا جدلًا، بأنهم رووا الأحاديث بالمعنى، وصاغوها بعباراتهم، فإنهم ممن يحتج بلغتهم.

---

(١) المحتسب، لابن جنى ١/ ٣٢.
(٢) خزانة الأدب ١/ ٤ وانظر الاقتراح، للسيوطى ١٥.
(٣) معانى القرآن، للفراء ١/ ١٤.

ولعل السبب الحقيقى فى بعد النحويين الأوائل، عن الاستشهاد بالحديث، إيثارهم الابتعاد عن موطن تزل فيه الأقدام، بعد شيوع الوضع فى الحديث، فى العصور الإسلامية الأولى، وكثرة اتهام بعض الناس لبعض، بهذا الوضع.

وليس معنى هذا، أن المؤلفات النحوية الأولى، تخلو من ذكر الحديث تمامًا، فعند سيبويه[1]، والفراء[2]، وأبى على الفارسي[3]، مثلًا، بعض الأحاديث. غير أن أول من أكثر من الاستشهاد[4] بالحديث، كان هو النحوى الأندلسى: ابن خروف (المتوفى سنة ٦٠٩هـ)، وتابعه على ذلك ابن مالك، صاحب الألفية (المتوفى سنة ٦٧٢هـ).

ومن أعلام المانعين من الاستشهاد به: ابن الضائع المتوفى سنة ٦٨٠هـ)، وأبو حيان (المتوفى سنة ٦٤٥هـ)[5]. أما ابن مالك، فقد أخذ مثلا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار" شاهدًا على لغة: "أكلونى البراغيث"، (وهى اللغة التى تلحق الفعل ضمير تثنية أو جمع، إذا كان الفاعل مثنى أو مجموعًا. وقد عرفت هذه اللغة بذلك الاسم؛ لأن سيبويه أول من مَثَّل لها فى كتابه، فاختار هذا المثال، فقال: "فى قول من قال: أكلونى البراغيث"[6]، كما قال: "ومن قال: أكلونى البراغيث"، كما قال: "ومن قال: أكلونى البراغيث، قلت على حد قوله: مررت برجل أعورين أبواه"[7]، وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة

(١) انظر: فهرس شواهد سيبويه، للنفاخ ٥٧-٥٨ وفهارس كتاب سيبويه، لعبد السلام هارون ٥/ ٣٢ وللشيخ عضيمة ٦٧٢.

(٢) انظر: أبو زكريا الفراء ٢٤٢.

(٣) انظر: أبو على الفارسى ٢٠٤.

(٤) ذكر ذلك ابن الضائع فى شرح الجمل؛ فقال: "وابن خروف يستشهد بالحديث كثيرًا".
انظر: خزانة الأدب ١/ ٥ وعلى ذلك، ليس ابن خروف أول من استشهد بالحديث، كما ذكر يوهان فك (العربية ٢٣٥)، بل كان أول من أكثر من الاستشهاد به.

(٥) انظر: خزانة الأدب، للبغدادى ١/ ٩ والاقتراح، للسيوطى ١٧-١٨.

(٦) كتاب سيبويه ١: ٥/ ١٣؛ ١: ٦/ ٦.

(٧) كتاب سيبويه ١: ٦/ ٢٥٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرى فى كتابه، فقال: "واعلم أن من العرب من يقول" ضربونى قومك. ضربانى أخواك، فشبهوا هذه بالتاء، التى يظهرونها فى: قالت فلانة، فكأنهم أرادوا أن يعلوا للجميع علامة، كما جعلوا للمؤنث، وهى قليلة"[1].

وقد حكيت هذه اللغة عن قبيلة "بلحارث بن كعب"، كما حكاها البصريون عن قبيلة طيىء، وبعض النحويين يحكونها عن قبيلة أزد شنوءة. والأصل فى اللغات السامية، أن يعامل الفعل فيها معاملته فى لغة: "أكلونى البراغيث"[2]. وقد بقى فى هذا الأصل فى العربية، أمثلة فى اللهجات المختلفة، كما توجد منه بعض الأمثلة، فى القرآن الكريم، والحديث الشريف، والأشعار.

فمما جاء منه القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾[4]. ومما جاء فى الحديث الشريف، قوله صلى الله عليه وسلم: "يَعْتَزِلْنَ الحَيضُ المُصَلَّى"، وقوله: "ما أغْبَرَّتا قدما عَبْدٍ فى سَبيل الله". ومما جاء فى الشعر، قول عمرو بن ملقط الطائى الجاهلي[5]:

أُلْفِيَتَا عَيْنَاكَ عِنْدَ القَفَا ... أَلْلَى فَأَوْلَى لَكَ ذَا وَاقِيهْ

وقول أُجَيْحة بن الجُلاح[6]:

يَلُومُنَنى فى اشْتِرَاءِ النَّخِيل (م) ... أَهْلِى فَكُلُّهُمْ يَغْذِلُ

وقول مجنون ليلى[7]:

وَلَوْ أَحْدَقُوا بى الإِنْسُ والجنُّ كُلُّهُمْ ... لِكَى يَمْنَعُونى أَنْ أَجِيكِ لَجِئتُ

---

(١) كتاب سيبويه ١: ٢٣٦/ ١١.
(٢) انظر: نصوص من اللغات السامية ٧؛ ٧٩؛ ١٢١.
(٣) سورة الأنبياء ٢١/ ٣.
(٤) سورة المائدة ٥/ ٧١.
(٥) شرح شواهد المغنى ١١٣.
(٦) شرح شواهد المغنى ٢٦٥.
(٧) ديوان مجنون ليلى ق٨٥/ ٤ ص٧٤.

وقول ابن قيس الرقيات[1]:

تَوَلَّى قِتَالَ المارِقِينَ بِنَفْسِهِ ... وَقَدْ أَسْلَمَاهُ مُبْعَدٌ وَحَمِيمُ

وهذه الظاهرة هى الشائعة فى كلامنا، فى اللهجات العربية الحديثة، كقولنا مثلا: "ظلمونى الناس". وقد جعل الحريرى ذلك من لحن العامة[2]، ورد عليه الشهاب الخفاجى، فقال: "وليس الأمر كما ذكره؛ فإن هذه لغة قوم من العرب، يجعلون الألف والواو حرفى علامة للتثنية والجمع، والاسم الظاهر فاعلا، وتعرف بين النحاة، بلغة أكلونى البراغيث؛ لأنه مثالها الذى اشتهر به، وهى لغة طيئ، كما قال الزمخشرى، وقد وقع منها فى الآيات والأحاديث، وكلام الفصحاء، ما لا يحصى"[3].

وكما عُنِى ابن مالك بالاستشهاد بالحديث، فقد عنى به كذلك الإمام الرضى، وزاد عليه الاحتجاج بكلام أهل البيت، رضى الله عنهم[4].

ومن علماء العصور المتأخرة، أمثال "الإمام الشاطبى (المتوفى سنة ٧٩٠هـ). من قسَّم الأحاديث إلى قسمين: قسم يظن أن العناية قد وجَّهت إلى ألفاظه لغرض خاص، كالأحاديث التى قصد بها بيان فصاحته صلى الله عليه وسلم، ككتابه لهمدان، وكتابه لوائل بن حُجْر، والأمثال النبوية، فهذا يصح الاستشهاد به فى العربية. وقسم يظن أن العناية وُجِّهت فيه إلى المعنى، وقد رأى الشاطبى أنه لا يصح الاستشهاد به مطلقًا[5].

هذا بالنسبة للقرآن والحديث. أما بالنسبة للشعر، فقد قسم اللغويون الشعراء، إلى أربع طبقات:

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ق٥٣/ ٢ ص١٩٦ وشرح شواهد المغنى ٢٦٦.

(٢) انظر: درة الغواص فى أوهام الخواص ٦٥.

(٣) انظر: شرح درة الغواص، للشهاب الخفاجى ١٥٢.

(٤) انظر: خزانة الأدب ١/ ٦.

(٥) انظر: خزانة الأدب ١/ ٦.

١- طبقة الجاهليين: كزهير، وطرفة، وعمرو بن كلثوم.

٢- طبقة المخضرمين: وهم الذين شهدوا الجاهلية وصدر الإسلام، كالخنساء، وحسان بن ثابت، وكعب بن زهير.

٣- طبقة الإسلاميين: كجرير، والفرزدق، والأخطل.

٤- طبقة المولدين، أو المحدثين: وهم يبدءون فى العصر العباسى، ببشار بن برد، وأبى نواس. (بدون همزة)

وقد منع علماء العربية الاستشهاد

وقد أجمع علماء اللغة، على أن شعراء الطبقتين الأوليين، يحتج بشعرهم، بغير نزاع. أما الطبقة الثالثة، فمعظم اللغويين يرون صحة الأخذ بشعر هذه الطبقة، غير أن بعضهم كان يأبى الاحتجاج به، وأما الطبقة الرابعة، فقد رفض اللغويون الاحتجاج بشىء من شعرها، فيما عدا الزمخشرى الذى أجاز ذلك.

يقول البغدادى: "فالطبقتان الأوليان، يستشهد بشعرهما إجماعًا. وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها. وقد كان أبو عمرو بن العلاء، وعبدالله بن أبى إسحاق، والحسن البصرى، وعبدالله بن شبرمة، يُلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم... فى عدة أبيات، أخذت عليهم ظاهرًا، وكانوا يعدونهم من المولدين؛ لأنهم كانوا فى عصرهم، والمعاصرة حجاب"(١).

وقال ابن رشيق: "كل قديم من الشعراء، فهو محدث فى زمانه، بالإضافة إلى من كان قبله. وكان أبو عمرو يقول: لقد أحسن هذا المولد، حتى لقد هممت أن آخر صبياننا برواية شعره - يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق - فجعله مُوَلَّدًا، بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للمتقدّمين. قال الأصمعى: جلست إليه عشر حجج، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي"(٢).

كما يقول ابن قتيبة: "كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم، يعدون محدثين.

(١) خزانة الأدب ١/ ٦.

(٢) انظر: العمدة لابن رشيق ١/ ٥٦.